

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٤ —

الفلسفة الصينية

العصر المهنجي

لم يكده حكم أسرة « تشو » ينتهي حوالى القرن السابع قبل المسيح حتى هوت بلاد الصين في أعين أنواع الفوضى والاضطراب، وظلت تروح تحت نير هذا التدهور السياسي والاقتصادى والأخلاقى نحو خمسة قرون. فلما ضيق هذه الأزمات الاجتماعية الحناق وأحكمت الضنط، كان من الطبيعى أن تنفجر العقول الجبارة بعد أن استاءت الضمائر النبيلة؛ وكان من الطبيعى كذلك أن يحدث هذا الاستياء وذلك الانفجار آثاراً بارزة في الحياة الاجتماعية عامة، وفي الحياة العقلية بنوع خاص، وهذا هو الذى كان، إذ لم يكده ينتهى الثلث الأول من القرن السادس حتى كان كوكب تلك الشخصية البارزة المتأززة وهى شخصية « لاهو — تسيه » قد سطع في سماء الصين سطوعاً أعقبه انفجار ينبوع عبقرية أخرى فانت الأولى عمقاً وسمواً، وتكاثفت وإياها على زرع الفلسفة الصينية إلى صفوف منتجات الأمم الراقية، تلك هي عبقرية « كونفوشيوس »

عرف « كونفوشيوس » « لاهو — تسيه » ولكنه لم يكن معه على وفاق في الآراء الفلسفية، بل كان وإياه على طرفي تقيض في أهم النظريات، إذ لم يكده « كونفوشيوس » ينضح ويعلن مذهبه حتى لاحظ الناس أن بين المذهبين خلافاً جوهرياً في القواعد الأساسية؛ ولم يكن هذا الخلاف حول عقيدة دينية أو رأى نظري، وإنما كان في الفلسفة العملية، لأنه نشأ من سؤال هام دعت إليه الحالة الاجتماعية في بلاد الصين، وهو: « ماهي الوسيلة الناجمة لإتقاذ البلاد من هذا التدهور؟ »

بينما كان « لاهو — تسيه » يرى أن التمسك والزهادة واحتقار الحياة العملية هي الوسيلة لهذا الإنقاذ الفتنق، كان

كم شهوة مستقرّة فرحاً قد انجلى عن حلول آفاتٍ
وكم جهول تراه مشتركياً سرور وقتٍ بنم أوقات
كم شهوات سلبن صاحبها ثوب الديانات والمروءات
وقد جمع جملة من الحكم وأشتاتاً من الأخلاق وركاماً من
التجارب في قوله:

لسان الفتى خفق الفتى حين يجهل
إذا مالسان المرء أكثر هذره
وكم فأنح أبواب شر لنفسه
كذامن رى يوماً شرارات لفظه
ومن لم يقيد لفظه متجمللاً
ومن لم يكن في فيه ماء صيانة
فلم تحسن الفضل في الحلم وحده
ومن ينتصر ممن بنى فهو ماينى
وقد أوجب الله القصاص بعدله
فان كان قول قد أصاب مقاتلاً
وقد قيل في حفظ اللسان وحزنه
ومن لم تقر به سلامة غيبه
ومن يتخذ سوء التخلف عادةً
ومن كثرت منه الوقعة طالباً
وعدل مكافاة السوء بفعله
ولافضل في الحسنى إلى من يحسها
ومن جعل التمرريض محصول مزحه
ومن أمن الآفات عجباً برأيه
أعلمكم ما علمتى تجاربي
إذا قلت قولاً كنت رهن جوابه
إذا شئت أن تحيا سعيداً مسلماً

وذكره الخطيب أياً ثلاثة تدل على ارتبائه في الهوى وهى:
ما جفانى من كان لى أرفساً أرنست شوقاً ببعض أسبابه
كثل يعقوب بعد يوسف إذ حنن إلى شتم بعض أثوابه
دخلت باب الهوى ولى بصراً وفي خروجى عميت عن بابيه
« بنداد »
مصطفى مبرور

(١) ذكره هذا البيت وآخر بيت في القصيدة باقوت الحموى في معجم الأدباء

(٢) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٧ — ٨ »

وهو أحد أخصاء تلاميذه الأوفياء وألح عليه قائلاً : « من حيث إنك أردت أن تدفن نفسك في هذه العزلة الموحشة ، فأنا أتوسل إليك أن تؤلف كتاباً لتؤدبني به » فلم يسع هذا الحكيم بإزاء ذلك الرجاء الملح إلا أن يجيب تلميذه إلى سؤاله ، فألف كتاب « تاو - تي - كينج » وعلى أثر فراغه من كتابته غادر ذلك الوادي الذي عرفه الناس فيه وانسحب إلى حيث لم يره بعد ذلك أحد

وقد حدثنا « سي - ما - تسيان » أيضاً أنه أعقب بعده ابناً يسمى « تسونج » صار بعد أبيه من عظمة الدولة ؛ وكان قائداً كبيراً من قواد جيوشها ، وأن مشاهير رجال الملكة الذين لعبوا أهم الأدوار السياسية والاجتماعية فيها كانوا من ذريته

أما الأساطير الشعبية فقد أحاطت هذا الحكيم ببناء كثيفة من الروايات والحوادث التي ثبتت الاستحالة الزمنية في بعضها ، وتحقق الاستبعاد في بعضها الآخر ، كما أنه قد غلبت الحقيقة على البعض الثالث . فمن هذه الأساطير ما يحدثنا عن تلك المقابلة الهامة التي حدثت في سنة ٥٢٥ قبل المسيح بين « لاهو - تسيه » و« كوفيشيوس » ومادار فيها من محاورات بين الحكيم الشيخ الهادي الوائق مما يقول ، وبين المبقرى الشاب المتحمس المقعم بالآمال العذبة في المستقبل المنير

تحدثنا هذه الأسطورة أن الشيخ أعلن في حديثه أن إصلاح الحياة الاجتماعية بواسطة النشاط العملي مستحيل ، وأنه لا يتيسر إلا بواسطة التسك والزهادة والاعتزال ، وأنه لم يقل بهذا الرأي إلا بعد تجارب طويلة استغرقت سبعين سنة ، وأن « كوفيشيوس » حينما سمع من الحكيم الشيخ هذا الرأي ، لم يتردد في الحكم عليه بأنه خاطئ باطل ، وبأن نتيجته هي الخمول واليأس ؛ ثم سأله قائلاً : « إذا كان واجب كل فرد من أفراد الدولة أن ينسحب في كهف من الكهوف ، فمن ذا الذي يسمو المدن ، ويفلح الأرض وينشئ الصناعات ، ويدمى النوع البشرى على سطح الأرض ؟ وإذا كان هذا الاعتزال من واجب الحكماء فحسب ، فمن ذا الذي سيربى الانسان ويؤدبه ويصون الفضيلة والأخلاق ؟ »

وتحدثنا هذه الأسطورة أيضاً أن المقابلة بين هذين الحكيمين كانت من أجل هذا الخلاف فارة ، وأن سوء التفاهم قد ساد بينهما على أثر هذه المحاورة . ويعلق أحد « المستصينيين » على هذا البناء بقوله : « مادام قد ثبت تاريخياً أن « لاهو - تسيه » كان

« كوفيشيوس » يعلن أن الوسيلة الوحيدة لهذه النجاة هي العناية الفائقة بتنظيم الحياة العملية على أساس الخير الأخلاقي الذي ينتهي حتماً إلى الصلاح الاجتماعي ، وصرح أن الاهتمام بال عمران المنظم والقضاء على الرذائل التي تنخر في بناء صرحه هما وحدهما الكفيلان بإعادة الرفهية والهدوء إلى الدولة ؛ وقد كان من المفهوم بعد تأسيس هذا الخلاف أن يتسع البون بين هذين المذهبين في أكثر نظريتهما الهامة ، وهذا هو الذي حدث بالفعل غير أنه ينبغي لنا أن نشير إلى أن محاولة حل هذه المشكلة ليست من مستحدثات هذين الفيلسوفين ، وإنما هي محاولة قديمة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ؛ غاية ما هنالك أن ذلك الخلاف كان في الماضي نظرياً فحسب ، لأن البلاد لم تكن قد هوت بعد في هذا التدهور ، أما في هذا العصر فقد أضحت هذه المشكلة عملية يجب الاعتناء بها

الآن وبعد أن ألمنا إلى هذين الفيلسوفين هذه الاملاعة العاجلة يد أن تناولهما في شيء من التفصيل بادئين بأولهما

لاهو - تسيه

هياته

ليست هذه الكلمة اسمه ولا اسم أسرته ، وإنما معناها : « الأستاذ القديم » أو « العالم القديم » أو « الحكيم القديم » ؛ أما اسمه الحقيقي ، فهو « بي - ياج » ، واسم أسرته « لي » وقد دعاه الناس بعد موته : « تان » ، وهو لقب مشرف كان الصينيون يطلقونه على الحكماء بعد موتهم

ولد هذا الحكيم في سنة ٦٠٤ قبل المسيح في قرية « كيو - جين » بمملكة « تشو » التي هي الآن في مقاطعة « أو نان » وكل ما يعرفه التاريخ الصحيح عن حياته هو ما يحدثنا به « سي - ما - تسيان » أقدم مؤرخ صيني من أنه أمضى الأثرية القليلة من حياته في « تشو » . وفي أواخر حياته عين مديراً لدار المحفوظات الملكية ، ولكن أحداً لا يعرف ما هي الوظائف التي شغلها هذا الحكيم قبل هذه الإدارة ولا كم سنة قضاه فيها ، وإنما روى لنا هذا المؤرخ أنه حينما تقدمت به السن اعتزل الخدمة في الحكومة ، وانسحب إلى وادي « هان - كو » حيث اعتزل الناس جميعاً وظل فيه عاكفاً على تأملاته الفلسفية أسماً لمبادئه الأخلاقية . وفي أثناء هذه العزلة جاءه « بين - سي »

الاختلافات بين العلماء هو صعوبة معنى كلمة « ناو » التي اتخذها هذا الحكيم عنواناً لكتابه ؛ ولكن ليس معنى هذا أن تلك الكلمة كانت في الأصل غامضة أو عويصة ؛ كلا ، فقدمرت بنا في عصر ما قبل التاريخ وعرفنا أن معناها إما « الصراط السوي » وإما « واجب الانسان » أو « الفضيلة العليا » أو « الغاية المثلى » ولكن الصعوبة حدثت من المعنى الجديد الذي أسبغته حكيمنا على هذه الكلمة حين اختارها عنواناً لكتابه الفلسفي ولم يصرح في تحديده بكلمة قاطعة ؛ بل ترك الباحثين يستنتجون هذا المعنى الحديث من الشاكل التي درست في هذا الكتاب ؛ فلما عالج العلماء الأوربيون هذا البحث ذهب كل منهم مذهباً يتناقض مذهب الآخر ؛ بل إن بعضهم أتى سلاحه بإزاء هذا العنوان وانسحب من الميدان ؛ ومن هذا القسم الأخير المسمى « دينيس سورا » الذي أعلن أن هذه الكلمة غير مفهومة . وإذا فالذهب النظري لهذا الحكيم غير مفهوم . أما الأستاذ « زانكير » فقد أفاض في شرح هذه الكلمة وتعقب مراميها المختلفة تعقّباً يروى غلة الباحث الشغوف . وخلاصة ما قاله في هذا الشأن أن هذه الكلمة تحمل من المعاني ما لا يمكن أن يؤدي بلفظة أوربية . ولهذا يكون خاطئاً كل من حاول ترجمتها بكلمة واحدة من لغاتنا الحديثة ، بل الوجب ترجمتها بجملة طويلة أو بمدة كلمات ، فمن معانيها مثلاً : الروح الأزل الأبدى الشتمل على جميع القوى الحيوية ، والكائن التقى ، والجوهر الأساسي لكل موجود ، والحياة الحقة لكل كائن ، والمدبر العام للكون كله ، وفوق ذلك كله فهذه الكلمة قد احتفظت بمعانيها القديمة التي كانت لها في عصر ما قبل التاريخ ، وهي : الصراط السوي ، والفضيلة ، والواجب ، والغاية ، والتطور ، ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا التطور ليس إلا أترأ ظاهراً لهذه القوة ، أما هي نفسها فتأبته لا تتغير

وأكثر من هذا أن « لاهو - نسيه » بصرح بأن « ناو » هو الـ « في ذاته » ، بل هو الكائن الغير القابل لمُدْرَكِيَّة العقل البشري ، لأن أي كائن متى حصره التفكير الانساني ووضع له اسماً مُحدِّداً ، فقد قَدَّ تقاهه ولا نهائيته

ولا شك أن من باقى نظرة عاجلة على المدرسة الأفلاطونية الحديثة ويستعرض ما قاله « أفلوطين » عن الاله يحد الشبه عظيمًا بينه وبين هذا الرأي

مدير أمدار المحفوظات في مدينة « لو » في نفس التاريخ الذي زار فيه « كونفوشيوس » هذه العاصمة ، بل إنه قد ثبت أنه زار دار المحفوظات نفسها وطلب الاطلاع على بعض ما فيها من وثائق قديمة كانت دراسته في حاجة إليها ، أفليست هذه الظروف كلها تدعونا إلى تصديق هذه الأسطورة لا سيما إذا كان ما حدثنا عنه من خلاف صحيحاً صحة علمية ؟

ومن هذه الأساطير أيضاً ما يروى لنا أن « لاهو - نسيه » بعد أن اعتزل الخدمة ارحل إلى بلاد الهند وأخذ ينشر تعاليمه هناك ، وقد تلاقى مع « بودا » فتلمذ هذا الأخير عليه ، وتاقى عنه تلك المعارف للصينية القيمة التي كانت فيما بعد أساساً لمذهبه ويستبعد الأستاذ « زانكير » صحة هذه الأسطورة ، لأن « بودا » لم يولد إلا بعد هذا الحكيم بمائة وخمسة وعشرين عاماً ؛ وإذا صح سفره إلى الهند ، فلا يمكن أن يصح لقاؤه مع شخص بقى على مولده خمس وأربعون سنة ، فضلاً عن نشأته واستعداده لتلقى العلم ؛ فإذا أضفنا إلى هذا أن حكيمنا لم يعتزل الخدمة إلا بعد بلوغه سن الثمانين استطعنا في سهولة أن نجزم باستبعاد صحة هذه الأسطورة هناك أسطورة نالته تبنياً بأن هذا الحكيم قد كتب ألف كتاب ، منها تسعمائة وثلاثون في شرح فن الحياة العملية والأخلاق والسلوك والمعاملات الإنسانية ، والسبعون كتاباً الباقية في السحر ، وعلى الأخص في صنع التائم التي يجلب حملها السعادة للأحياء

لاريب أن هذه الأسطورة لا تقل عن سابقها بطلاناً ، لأن هذا الحكيم لم يثبت عنه أنه كتب غير كتاب « ناو - تي - كينج » الذي أشرنا إليه آنفاً ، والذي خصصه لتسجيل مذهبه الفلسفي . بل إن النقاد المحدثين يجزمون بأن هذا الكتاب على حاله الراهنة ليس من تأليف « لاهو - نسيه » وإنما هو مجموعة من آرائه وحكمه مضافاً إليها آراء وحكم لبعض القدماء الذين سبقوا عصر هذا الحكيم ، ويرجحون أن هذا الكتاب قد كتب بمدة أقلام مختلفة ، بعضها لتلاميذ هذا الحكيم ، والآخر لبعض المتهذبين بمذهبه

مذهبه

اختلف الباحثون المحدثون في المذهب النظري لهذا الحكيم اختلافات شتى جملت اليقين عسيراً على كل من يحاول الحكم على هذه الفلسفة « اللاهو - نسيه » والسبب في وقوع كل هذه